

نظم الاستخبارات الأيوبية في عصر صلاح الدين

سلامة محمد المحرري البلوي*

ملخص

تحاول هذه الدراسة رسم صورة أولية لمعالم نظم الاستخبارات الأيوبية من خلال محاولة الإجابة عن التساؤلات الآتية: هل تملك الاستخبارات الأيوبية هيكلًا تنظيميًا يعبر تصوراً صادقاً عن طول باعها في العمل الاستخباري؟ وكيف تمكنت الاستخبارات الأيوبية من اختراق صفوف أعدائها وحماية أمنها الداخلي؟ وماهي أبرز النجاحات التي حققتها والإخفاقات التي منيت بها؟ وأخيراً ما هي أبرز الملاحظات والنتائج التي يمكن أن تخرج بها من دراسة هذا الموضوع؟ وقد جاءت الإجابة عن هذه التساؤلات في أربعة محاور، تناول الأول منها: الهيكل التنظيمي للاستخبارات الأيوبية، وأورد الثاني لمهام الاستخبارات الأيوبية.

وجاء المحور الثالث ليتحدث عن دور الاستخبارات الأيوبية في توجيه العمليات العسكرية. وعخص المحور الأخير للاستخبارات الأيوبية بين النجاح والإخفاق، وقد ذيلت الدراسة بأهم النتائج والملاحظات.

Abstract

This study attempts to provide a preliminary image of the characteristics features of the intelligence systems in the Age of Salah El-Deen Al-Ayyubi. Stated more specifically, the study aims to answer to the following questions:

- 1- Did the Ayobite intelligence systems have an organizational structure that reflected their expertise and professionalism?
- 2- How did the Ayobite intelligence systems manage to penetrate through their enemy regimes, and how they manage to protect and maintain their internal security?
- 3- What were their major accomplishments and defects?
- 4- What conclusions and implications can be obtained from such an investigation?

The answers to these questions were presented in four major sections. The first section presented the organizational structure of the Ayobite Intelligence Systems, whereas the second one was devoted to the duties that those systems used to perform. The third section highlighted the role of the Ayobite intelligence Systems in guiding and directing military operations. Finally, the strengths and weaknesses of those intelligence systems were discussed in the fourth section together with the research conclusions and implications.

* قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الآداب والعلوم، جامعة الشارقة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2007م.

مقدمة

تعد دراسة نظم الاستخبارات⁽¹⁾ في الحضارة الإسلامية من الدراسات المهمة؛ لأنها ترسم بكل وضوح معالم تطور الفكر التنظيمي وتطبيقاته العملية في حقل يعد من أكثر الحقول حساسية وصعوبة في البحث، فنشاط الاستخبارات وآليات عملها، والهيكل التنظيمي لدوائرها وتشكيلاتها، والبناء الهرمي لقيادتها، وأسماء عناصرها، من الأمور التي تفرص الدول على إحاطتها بالسرية والكتمان؛ لذا لا غرابة أن نجد الدراسات التي تحاول كشف مغاليق هذه المؤسسات الحساسة التي لعبت دوراً مهماً في تاريخنا الحضاري لا تزال في بداية مشوارها، وهذا ما دفعني إلى مواصلة البحث في هذا المجال، واستكمالاً لما بدأت منذ عقد من الزمان⁽²⁾ هذه الدراسة التي خصصتها "لنظم الاستخبارات الأيوبية في عصر صلاح الدين الأيوبي"⁽³⁾، لكشف المزيد من جوانب عبقرية هذا القائد المظفر، وتأمين ما قام به من جهود في تطوير فن جمع المعلومات الاستخبارية، وما حققه من نجاحات في اختراق الدفاعات الأمنية لخصومه ما مكّنه من رسم خطته على بصورة، تلك الخطط التي تكلفت في نهاية المطاف بتحرير بيت المقدس من الاحتلال الصليبي⁽⁴⁾، ليغدو صلاح الدين بعد هذا العمل العظيم رمزاً في الذاكرة الإسلامية للقائد المنقذ الذي تم استحضار صورته كلما تعرضت القدس للاعتداء وعجزت الأمة عن صده.

لقد آمن صلاح الدين بأن من يملك المعلومات عن خصومه يملك النصر؛ لذا نجده يبذل جهوداً مضنية في سبيل تطوير استخباراته، فاختار لها أفضل العناصر، وأسند قيادتها لحيرة رجاله، ووسع دائرة نشاطاتها من خلال استحداث العديد من الدوائر التي تخصصت كل دائرة منها بلون معين من المهام، مركزاً في الوقت نفسه على تطوير وسائل الاتصال مع رجال استخباراته، والعمل باستمرار على ابتكار وسائل جديدة للمحافظة على أمن رسائله، ومنع تسرب أسرارها إلى أعدائه.

إن هذه الدراسة تحاول رسم صورة أولية لمعالم نظم الاستخبارات الأيوبية من خلال محاولة الإجابة عن التساؤلات الآتية:

هل تملك الاستخبارات الأيوبية هيكلًا تنظيميًا يعبر تعبيراً صادقاً عن طول باعها في العمل الاستخباري؟ وكيف تمكنت الاستخبارات الأيوبية من اختراق صفوف أعدائها وحماية أمنها الداخلي، وماهي أبرز النجاحات التي حققتها والإخفاقات التي منيت بها؟ وأخيراً ماهي أبرز الملاحظات والنتائج التي يمكن أن تخرج بها من دراسة هذا الموضوع؟

وقد جاءت الإجابة عن هذه التساؤلات في أربعة محاور، تناول الأول منها: الهيكل التنظيمي للاستخبارات الأيوبية، وقد تم تبسيط الضوء فيه على دائرة الاستقطاب والتجنيد، ودائرة أمن المعلومات، ودائرة المستأمنين، ودائرة النصاري العرب، ودائرة الترجمة، والدائرة المالية، ودائرة الاتصالات، والتجنس، فضلاً عن فرقة اليوزك، وفرقة اللصوص.

أما المحور الثاني فأفرد لمهام الاستخبارات الأيوبية والتي كان من أهمها:

حماية الأمن الداخلي، ومراقبة الحدود، والسفراء الأجانب، ومكافحة النشاطات التجسسية، وجاء المحور الثالث

لنتحدث عن دور الاستخبارات الأيوبية في توجيه العمليات العسكرية، وتدمير الأسلحة الاستراتيجية للعدو. وخصص المحور الرابع للاستخبارات الأيوبية بين النجاح والإخفاق، وقد ذيلت الدراسة بأهم النتائج والملاحظات.

الهيكل التنظيمي للاستخبارات الأيوبية

إن البنية الهيكلية لأي جهاز استخباري تعبر تعبيراً صادقاً عن أهدافه وطموحاته، والمساحة الجغرافية التي تغطيها نشاطاته، ونوعية التحديات والأخطار التي تواجهه، فضلاً عن التحسيد الحي لتطور الفكر الإداري ومرورته في مواجهة التحديات المستجدة.

لقد ولدت الاستخبارات الأيوبية وترعرعت في ظروف في غاية القسوة والتعقيد على مختلف المستويات: الأمنية، والعسكرية، والسياسية، والعقدية، والاجتماعية، والجغرافية، فبلاد الشام كانت مشرذمة إلى كيانات سياسية متصارعة، فضلاً عن وجود ذلك النسيج للعقد من الناحية العرقية والمذهبية والدينية، فلا تكاد توجد لحلة من نسل المسلمين أو النصاري إلا ولها أتباع في هذه البقعة الجغرافية، ناهيك بالعديد من الأجناس والأعراق التي تعود في جذورها لتلك الحضارات المندسة والتي كان لها شأن في يوم من الأيام في بلاد الشام، مما هب الأحياء لظهور العديد من الفرق الغالية التي أخذت تعيث في الأرض فساداً، وتقتل وتنهب وتخون وتغتال، فكانت على سبيل المثال فرقة الحشاشين⁽⁵⁾ تنصيد قادة الفكر والسياسة والخيلى لتقتلهم مما مهد الطريق أمام جحافل الصليبيين لاحتياح بلاد الشام ومحاولة الاستيلاء على أرض الحجاز خاصة عندما أخذوا يتغفلون في المجتمع الإسلامي وكسب بعض ضعاف النفوس للعمل معهم.⁽⁶⁾

ولم تكن مصر بأحسن حالاً من بلاد الشام حيث كانت تن تحت وطأة الحكم الفاطمي الذي لم يتورع عن إرسال الرسل للصليبيين من أجل العمل معاً من أجل القضاء على السلالة⁽⁷⁾، كل هذه التحديات إلى جانب المساحة الجغرافية الشاسعة حتمت على صلاح الدين الأيوبي بناء جهاز استخباري يتناغم مع هذه التحديات لدراستها، أو على أقل تقدير منعها من تحقيق أهدافها في إفشال مشروع الوحدة والتحرير الذي تبناه، فكان جهاز الاستخبارات الأيوبي ثمرة لهذه التحديات، والتي جعلت منه الموحه الحقيقي للحرب والسلام، وجعلت له الفضل الأكبر في تحرير بيت المقدس، فقد حذرت الاستخبارات الأيوبية الطاقات كلها واستغلت الإمكانيات المتاحة كلها من أجل الحصول على المعلومات من مصادرها، وتقديمها في الوقت المناسب لصاحب القرار من خلال توزيع المهام على مجموعة من الدوائر الاستخبارية المتخصصة ضمن هيكلية تم بناؤها بمنتهى الدقة ووزعت مهامها بعناية وسرية وكتمان، ولعل أبرز أقسام ودوائر الاستخبارات الأيوبية:

أ - القيادة العامة

كانت الاستخبارات الأيوبية ترتبط ارتباطاً مباشراً برأس الدولة الأيوبية، فكان صلاح الدين الأيوبي يشرف مباشرة على عملياتها، لا بل كان يقوم بنفسه بأعمال استخبارية ليكون المثال والقوة لرجال استخبارته، فكان يتخفى ويصل إلى مواقع متقدمة من معسكرات العدو الصليبي، ويقوم بتسجيل ملاحظاته الأمنية، ومن ثم يصدر

أوامره العسكرية على ضوء ما تجمع لديه من معلومات⁽⁸⁾. إلا إنه كان يسند قيادة بعض دوائر استخباراته لكبار قادته ممن يثق بهم من أبناء البيت الأيوبي، أمثال: الملك العادل، والملوك الأفضل بن صلاح الدين، وعزالدين حرديك⁽⁹⁾. وكل ذلك يؤكد إدراك صلاح الدين الأيوبي لخطورة هذه المؤسسة، وضرورة إخضاعها للإشراف المباشر والمراقبة المستمرة من قبل أعلى سلطة في الدولة.

ب - دائرة الاستقطاب والتجنيد

1 - الشروط العامة

يجب لأي شخص أن يجتهد في الاستخبارات الأيوبية، بغض النظر عن لونه أو جنسه، أو دينه، أو ماضيه الجنائي، وذلك بعد التأكد من صدقه وولائه، وإخضاعه للتدريب للمهمة المطلوبة منه القيام بها، لذا ليس مستغرباً بأن يجتهد في صفوف الاستخبارات الأيوبية، الرجل والمرأة، والمسلم والكافر، والأمير والخص⁽¹⁰⁾.

2 - الشروط الخاصة للقيادات الميدانية

لقد حرصت القيادة الأيوبية على وضع العديد من الشروط الصارمة لمن تسند إليه مهمة استخبارية في وسط الأعداء ولعل من أبرز هذه الشروط: الإخلاص والولاء للقيادة الأيوبية، والتميز بالذكاء، وقوة الملاحظة، والقدرة على التحليل، إلى جانب إحاطته باللغة القوم الذين يعمل في وسطهم، فضلاً عن تمتعه بلباقة بدنية عالية، وأن يكون عالماً بالأسفار متميزاً بالقدرة على تحمل المشاق والصبر على الآلام عند تعرضه للتعذيب من قبل الأعداء في حالة وقوعه في الأسر، وقد لخص لنا هذه الشروط والصفات الواجب توافرها بمرحل الاستخبارات المثالي الأرسى الأنصاري حين قال: يجب أن يكون ممن يوثق بنصيحته صدقه، وأن يكون ذا حياء صائب، ولحاسة تامة ليدرك بوافر عقله وصائب حذسه من أسوأ العدو بالمشاهدة ما كتمه العدو عن النطق به، يستدل ببعض الأمور على بعض، وأن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة، له دربة بالأسفار، ومعرفة بالبلاد التي توجه إليها، عارفاً بلسان أهل البلد التي يتوجه إليها ليلتقط ما يقع من الكلام الذي يسمعه ممن يخالطه من العدو، وأن يكون صبوراً على ما لعله يصير إليه من العقوبة إذا ظفر به العدو، حتى لا يخبر بأحوال مرسله، ولا يطلع على وهن فيه، وفي عسكره⁽¹¹⁾.

إن هذه الصفات التي حرصت الاستخبارات الأيوبية على توافرها في عناصرها مكنتها من الإبداع في أداء مهامها على أكمل وجه.

ج - فرقة التزك⁽¹²⁾ :

تعد هذه الفرقة من أهم فرق الاستخبارات الأيوبية؛ لتعدد مهامها، وخطورة ما تقوم به من عمليات، لذا كان يختار عناصرها من بين أهل النصح والنجدة والتحرية في الحرب، وكانت تسند قيادتها لكبار رجالات البيت الأيوبي، أمثال: الملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي والملوك العادل، والأمير بدر الدين دلدردم البارقي، وعز الدين ابن المقدم، وعلم الدين سليمان حنبلر وغيرهم ممن هم في طبقتهم، حيث كانوا يقودون هذه الفرقة بالتناوب فضلاً

عن الإشراف على تدريبه تدريباً عالياً على فن تقصي أخبار العدو ومعرفة خططه الحربية⁽¹³⁾. وبعد تخرجهم يزودون بالجياد الهادئة والسريعة والتي تمتاز بجودة الحوافر والظهر فمن لا هيج بسهولة، ومن أجل منحهم قدراً عالياً من الخفة والسرعة في الحركة كانوا لا يلبسون الدروع ولا يحملون الثروس وغيرها من الأثقال التي تعيق حركتهم⁽¹⁴⁾.

لقد كانت فرقة التيزك تقدم تقاريرها الاستخبارية مرتين في اليوم الواحد⁽¹⁵⁾. وكانت هذه التقارير تنصف بالدقة والتفصيل عن الأهداف المطلوب رصدها، ولعل ما قدمته من وصف لعمليات الإعدام الجماعي لأسرى المسلمين في مدينة عكا بعد سقوطها بيد الصليبيين خير شاهد على الكفاءة العالية التي وصلت إليها في جمع المعلومات، فقد وصفت كيفية الإعدام، وعدد من أعدم. يقول المؤرخ ابن شداد⁽¹⁶⁾ نافلاً ما جاء في تقرير التيزك: "ثم أحضروا أسارى المسلمين وأرتقوهم بالخيال وحلوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صلباً وطعنوا وضرباً بالسيف، والتيزك الإسلامي يشاهدهم ... وقد قتلوا ثلاثة آلاف أسير مسلم فلم يبقوا من المسلمين إلا الرجال الذين عرفوا بقدرتهم على العمل لتسخيرهم في مهامهم الخاصة.

وقد مكنت تقارير التيزك القائد صلاح الدين الأيوبي من الإيقاع بالصليبيين في أكثر من مرة، ففي مستهل شعبان (587هـ / 1191م)، فشل تقرير للتيزك لحركات القوات الصليبية عبر الساحل باتجاه عسقلان، حيث أمر صلاح الدين على ضوء ذلك التقرير بملاحقة الحشود الصليبية ومنعها من تحقيق أهدافها⁽¹⁷⁾.

وتؤكد لنا المصادر أن من أبرز مهام فرقة التيزك إلى جانب جمع المعلومات الاستخبارية: تنفيذ عمليات اختطاف بعض القادة والأفراد من المعسكرات الصليبية⁽¹⁸⁾ إلى جانب تفقد تحصينات المدن الإسلامية لسد الخلل في أسوارها واستكمال تحصيناتها فضلاً عن تقديم التقارير عن تحصينات مدن وقلاع الأعداء وما يوجد فيها من عدد وموون وعناد ورجال، كما كانت تسند إليهم أثناء العمليات العسكرية مهام نصب الكمائن لقوات العدو أثناء سورها؛ لإرباكها قبل المعركة الفاصلة⁽¹⁹⁾، إلى جانب تكليفها بحفر الآبار لتزويد الجيش الإسلامي بالماء⁽²⁰⁾.

وهكذا أبدعت العقيلة الاستخبارية الأيوبية فرقة متعددة المهام تشبه إلى حد كبير ما تقوم به بعض الفرق الاستخبارية في يومنا هذا.

د. فرقة اللصوص

من مظاهر عبقرية صلاح الدين الأيوبي في إدارة الصراع مع الصليبيين حشده وتجيده لكل الطاقات الممكنة والمناخية لكسب جولات الصراع مع أعدائه، فكان على سبيل المثال: حريصاً كل الحرص على تحويل عوامل التقدم إلى عوامل بناء، وهذا تجلّى بشكل واضح من خلال استغلاله لطاقات اللصوص، حيث نجح في تحويلهم من عناصر تفرق الأمن الداخلي إلى عناصر مجاهدة تخدم أهداف الأمة، فقد جمع لصوص الشام وأقتنهم بأنهم يتمتعون بمواهب يمكن استغلالها في كسر شوكة الأعداء، وأن أفضل شيء يمكن أن يكتفروا به عن خطاياهم السابقة هو الجدل بمحاربة أعداء الأمة، حيث شكّل منهم فرقة من ثلاثمائة شخص وطلب منهم اختطاف أفراد وقادة الجيش الصليبي لاستحوالهم والتعرف إلى تحركاتهم ونواياهم وخططهم⁽²¹⁾، فنجحوا في مهامهم فيما نجاح، فكانوا يتسللون إلى

معسكرات الصليبيين في حرّة عظيمة فيخطفون بعض الأفراد ويعودون بهم إلى مراكز القيادة التي ينتمون لها، وقد ذكر لنا ابن شداد مهامهم تلك بشكل مفصل حين قال: "كان قد رتب حرمه الله ثلاثمائة نص من شلوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخبوهم ويسرقون الرجال أحياناً، وذلك أنه يكون الواحد منهم نائماً فيوضع على حلقة الخنجر، ثم يوقظ فوري الشلح وقد وضع الخنجر على عنقه فيسكت ولا يتجاسر أن يتكلم فيحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيم، ويؤخذ أسيراً وتكلم منهم جماعة فنحروا فصار من أصابه ذلك لا يتكلم واختاروا الأسر على القتل، وداموا على ذلك مدة طويلة ... (22)".

هـ. دائرة المستأمنين

تخص هذه الدائرة باستخلاص المعلومات من العناصر الصليبية التي التحأت إلى الدولة الأيوبية لظروف وأسباب مختلفة، وطلبت الأمان، حيث كانت تمثل معيلاً لا ينضب من المعلومات الاستخبارية للدولة الأيوبية، فكانت الاستخبارات الأيوبية عن طريق هذه العناصر ترصد أدق التفاصيل عن تشكيلات وخطط الجيوش الصليبية، فضلاً عن مستوى العلاقات بين قادة تلك الجيوش، والتي كانت تستمر بشكل جيد من قبل القيادة الأيوبية لتحقيق الانتصارات في ميادين القتال.

ومن المعلومات الثمينة التي قدمها المستأمنون في سنة (587هـ/1191م) على سبيل المثال: ذلك الوصف الحي والمفصل عن أحد الجيوش الصليبية المتوجهة لمحاربة الجيش الأيوبي، فذكروا أن الجيش الصليبي يتكون من الملك العتيق جفري وجماعة الساحلية معه في المقدمة، والفرنسية معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في المؤخرة (23)، كما أغمأ أخبروا صلاح الدين ذات مرة بأن العدو ينوي مفاجأة العسكر الإسلامي ليلاً، كما زودوه بأخبار الحملة الألمانية (24).

وقد أكد لنا المؤرخ الأيوبي ابن شداد بأنه كلما زاد ضغط الجيوش الأيوبية على الصليبيين وأحكم الحصار عليهم في بعض المناطق زاد من الضائقة الاقتصادية، وانتشر الفقر والجوع، مما يضطرهم للهوء للمعسكر الأيوبي. فنجدته يذكر ذلك بكل وضوح بقوله: "وكان قد استأمن من الإفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا" (25).

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الاستخبارات الأيوبية تمكنت من استقطاب العديد من العناصر العربية النصرانية، حيث قامت بدور مهم في حماية الأمن الداخلي، وكشف العديد من المؤامرات التي دبرها الصليبيون بالتعاون مع بعض العناصر المحلية المناوئة للدولة الأيوبية (26).

و. دائرة أسرى الحرب

تخصصت هذه الدائرة بالتحقيق مع الأسرى واستخلاص ما يمكن استخلاصه منهم من معلومات عسكرية وسياسية واقتصادية، ولأهمية ما يمكن الحصول عليه من معلومات من هذه العناصر كان صلاح الدين الأيوبي في كثير من الحالات يشرف مباشرة على استجواب بعضهم وهذا ما أكدته كل من ابن شداد (27) والعماد الأصفهاني (28)، ولنا أن نقدر قيمة المعلومات التي قدمها الأسرى أو التي استلها رجال الاستخبارات الأيوبية منهم، حين أحبروا القيادة الأيوبية في الثاني والعشرين من رمضان (587هـ/1191م) بعودة الملك الصليبي ريتشارد

قلب الأسد إلى مدينة عكا، وأنه مريض، وأن أهل عكا في حالة معنوية منهارة بسبب فقرهم وقلة المسون عندهم⁽²⁹⁾.

ولعلنا مدينون لهؤلاء الأسرى في معرفة حجم الأسطول الصقلي الذي هاجم الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة (569هـ/1174م)، يقول العماد الأصفهاني: "أما الخيل على ما حفته أخبار الأسارى على الانفراد ألف ومجسم رأس ... وكانت عدة راجلهم في كل شين مئة وخمسين رجلاً فيكون ثلاثين ألف على معنى شين ..."⁽³⁰⁾.

كما كانت الاستخبارات الأيوبية تستفيد من الأسرى المسلمين الذين فروا من أيدي الصليبيين أو الذين تم فداؤهم، فعلى سبيل المثال: أحمر أحد الأسرى المسلمين الذين فروا من معسكر الاعتقال الصليبي صلاح الدين بأن الصليبيين ينوون غزو الرملة⁽³¹⁾.

ز. دائرة الاستقطاب السياسي

ومهمة هذه الدائرة كسب الشخصيات القيادية في المعسكر الصليبي، ولخطورة وأهمية هذه الدائرة كانت تبسج بشكل مباشر لصلاح الدين الأيوبي، الذي تمكن بعد موقعة حطين (583هـ/1187م) من كسب العديد من الشخصيات الصليبية الكبيرة إلى جانبه، لا بل ونحوهم إلى حواشيس بمدونه بأمن المعلومات عن الجيوش الصليبية، ومن هذه الشخصيات المهمة، الأميرة سيبيل⁽³²⁾ زوجة الأمر بوهيمند الثالث أمير أنطاكية، والتي كانت تنقل لصلاح الدين أخبار الجيوش الصليبية وتحرركاتها، وفي المقابل كان صلاح الدين لا يخل عليها بالأموال والهدايا⁽³³⁾، ومن الخدمات الجلية التي قدمتها هذه السيدة لصلاح الدين، أنها كشفت له بعض أسرار الصليبيين ومواطن ضعفهم أثناء محاصرته لقلعة برزية⁽³⁴⁾ في الساحل الشامي، مما مكّنه من فتح القلعة الحصينة والتي استعصت عليه زمناً طويلاً، إذ كانت صاحبة القلعة أخت سيبيل، والتي أسرتها القوات الأيوبية، بيد أن صلاح الدين أطلق سراحها وأرسلها معززة مكرمة إلى أنطاكية بصحبة زوجها وجماعة من أصحابها، وكل ذلك تقديراً للأميرة سيبيل. يقول ابن شداد⁽³⁵⁾ "أطلق سراح صاحب برزية مع سبعة عشر نفساً وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية استمالة له".

ح. دائرة الترجمة

حتم تنوع لغات الجيوش الصليبية إلى استحداث دائرة في الاستخبارات الأيوبية للترجمة، للمساعدة في الترجمة عند استجواب الأسرى، أو استقبال رسائل العملاء المغروسين في داخل الصف الصليبي، وهذا ما يمكن ملاحظته بشكل جلي من خلال مراسلات صلاح الدين مع سيبيل أو من خلال استجواب الأسرى الذين كانت تتم ترجمة أقوالهم بشكل فوري، يقول المؤرخ أبو شامة⁽³⁶⁾ عن تعدد لغات الجنود الصليبيين في الحملة الصليبية الثالثة في معرض استجواب المسلمين للأسرى: "واحتج في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الأعجمية من لا يحصر معدوده، ولا يصور في الدنيا وجوده حتى إذا أسر أسير واستأمن المستأمن احتج في فهم لغته على عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ويقول ثان ما يقول الأول ...".

ط. دائرة أمن المعلومات

تُعد هذه الدائرة من أهم الدوائر في الهيكل التنظيمي للاستخبارات الأيوبية حيث كانت تختص بتوفير الحماية الأمنية للوثائق السرية للاستخبارات الأيوبية ومنع تسربها للأعداء، فضلاً عن توفير الحماية للرسائل المتبادلة ما بين القيادة والأفراد، إلى جانب التكتم على أسماء أفراد وقيادات الاستخبارات الأيوبية؛ لذا استحدثت هذه الدائرة وحدة خاصة للشفرة حيث كانت تشرف هذه الوحدة على تشفير الرسائل بين القيادة وعناصرها في مسرح العمليات، وهذا ما أكدته مؤرخ الدولة الأيوبية العماد الأصفهاني حين قال (37)، "كان رجال البريد يعملون كتباً وطبوراً، ويعودون بكتب وطبور، ونكتب إليهم ويكتبون إلينا على أشرطة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الأمور، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلبهم عليه من الخفي المستور".

ولعل التأمل لما كتبه المؤرخ النويري (ت732هـ/1332م) يجد بأن الحرص على التكتم على المعلومات المتعلقة بالجيش غدا من الأمور التي تعد من أولى أوليات القيادات الإسلامية على مر التاريخ، وأصبحنا نرى أدبيات كثيرة تتحدث عن الأسلوب الأمثل لحفظ الأسرار المتعلقة بإعداد وعدد الجيش وأسماء قياداته وأفراده، موضحة تلك الأدبيات المفاسد المترتبة على إهمال مثل هذا الأمر، يقول النويري (38) "ويتجنب مُباشِر الجيش أن يرقم بملقمة عدة الجيش تصريحاً لما يتعين من إخفاء عدته ... فإنه إن وضع ذلك لقمة لا يأمن من الإطلاع عليه وبذبح، وقد يتصل بالعدو والمعاوند والمناويء، فيترتب عليه من الفساد ما يترتب، وهذا باب يجب على كاتب الجيش الاحتفال به، وكتمان عن سائر الناس، وإن دعت الضرورة إلى تسطير ذلك خشية أن يسأله ولي الأمر من شيء منه، فليكن وصفه لذلك رمزاً خفياً بصطلح عليه نفسه لا يعرفه إلا هو ...".

ي. الدائرة المالية

وتقوم هذه الدائرة بتمويل العمليات الخاصة والإنفاق عليها، كما اتضح في عمليات عيسى المروم (39) أثناء حصار مدينة عكا (40)، حيث كان ينقل الأموال والرسائل إلى المحاصرين داخل الأسوار (41)، فضلاً عما تقوم به هذه الدائرة من تقديم الهدايا والأموال لاستغلاف كبار قادة العدو، كما ظهر ذلك في الهدايا والأموال التي قدمها صلاح الدين الأيوبي لسيبيل، ولا ننسى ما تقوم به هذه الدائرة من تقديم الرواتب، وكفالة أسر رجال الاستخبارات أثناء غيابهم.

ك. دائرة الاتصالات

إن مرونة الاتصال وسرعة توصيل المعلومات في الوقت المناسب، والتفنن في استخدام الوسائل المتاحة كلها والمكثة لاستمرار تدفق المعلومات الاستخبارية في الأحوال والظروف كلها يعد السمة المميزة للاستخبارات الأيوبية.

لقد استخدمت الاستخبارات الأيوبية وسائل الاتصال البرية والبحرية والجوية المتاحة كلها في التواصل مع رجالها في مسرح العمليات، ومن أبرز هذه الوسائل:

1. البريد الجوي (الحمام الزاجل)⁽⁴²⁾

لقد استغلت الدولة الأيوبية هذا الطائر أفضل استغلال، واحتفت به إنما احتفاء، للدور الذي لعبه في نقل الأخبار في الظروف الصعبة، حتى أن القاضي الفاضل سطر أجمل عبارات الثناء على هذا الطائر حين قال: "ملائكة الملوك - يشير إلى نزوله على الملك من جو الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء - مع فرط ما فيه من الأمانة لا يتوهم من جهتها خيانة"⁽⁴³⁾ "لهذا بلغ لمن الحمامة ألف دينار، والبيضة عشرين ديناراً"⁽⁴⁴⁾.

لقد أنشأت الاستخبارات الأيوبية شبكة ضخمة للاتصالات بواسطة الحمام الزاجل امتدت من حلب إلى الإسكندرية، وكل ذلك حرصاً من القيادة الأيوبية على وصول الأخبار في أقصى سرعة ممكنة، ولعلنا نقدر ما لهذه الوسيلة من دور فعال في خدمة الدولة الأيوبية، إن صلاح الدين قطع دابر الإشاعات والأراخيف التي انتشرت بعد موقعة الرملة حين تناقلت الألسن بأن القائد صلاح الدين قد استشهد، فقد جاء في سنا الترقى الشامي في هذا الشأن، "وسيرنا ما البشائر، وأنفضنا ببطاقاتها الطائر لإخراص ألسنة الأراخيف وإبدال التأمين من التخويف"⁽⁴⁵⁾.

كما كانت أخبار الحامية الأيوبية المحاصرة داخل عكا تصل يومياً وبشكل مباشر للقيادة الأيوبية بواسطة الحمام الزاجل، يقول ابن شداد⁽⁴⁶⁾: "والكتب متواصلة من عكا ومنا إليها على أجنحة الطيور وأيدي السياح والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وتدخل سرقة من العدو. وعندما أغار الأسطول الصقلي على الإسكندرية جاءت إلى صلاح الدين أخبار هذه الغارة عن طريق الحمام الزاجل"⁽⁴⁷⁾ مما عجل بوصول النجدة وإفشال هذه الحملة⁽⁴⁸⁾.

2. المحجن السريمة

كانت تستخدم هذه الوسيلة لقطع المسافات الطويلة خاصة عبر الصحراء، ومن الإشارات الدالة على استخدامها، هو وصول خبر سلامة صلاح الدين من وقعة الرملة عام (573هـ/1177م) إلى مصر على المحجن السريمة⁽⁴⁹⁾، كما وصل خبر غارة الإفرنج على الأطراف من حلب عن طريق نجاب من حلب قطع للمسافة في خمسة أيام⁽⁵⁰⁾.

3. السباحون

ظهرت هذه الوسيلة في نقل الرسائل أثناء حصار عكا، واشتهر على الخصوص عيسى العوام، فقد اعتاد هذا الرجل الدخول إلى عكا رغم الحصار البحري المضروب حولها، ومعه توجيهات صلاح الدين في كتب يشدها على وسطه مع مبلغ من المال، ولدى وصوله إلى عكا كانوا يطلقون طائراً لإعلام السلطان بسلامته ووصوله إلى المدينة، وذات ليلة نزل إلى البحر، وشدّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار مع كتب للعسكر إلا أنه لم يستطع الوصول فغرق في ساحل عكا⁽⁵¹⁾، وبعد أيام عثر على جثته، وعلى وسطه قطع الذهب وشمع الكتب، وقد علّق ابن شداد على ذلك بقوله: "فما روي من أدى الأمانة في حال حياته، وقد ردها في مماته إلا هذا الرجل".

4. السهام

كان يلجأ إلى استخدام السهام في نقل المعلومات وشن الحرب النفسية على الأعداء أثناء الحصار وانقطاع سبل

التواصل بين الطرفين، فعلى سبيل المثال: عندما كان الجيش الأيوبي يحاصر آمد عام (579هـ/1183م) أمر صلاح الدين أن يكتب على السهام إلى من في الحصن المذكور عبارات فيها الترغيب والترهيب يختمهم فيها على الاستسلام⁽⁵²⁾ ولا يستبعد استخدام هذه الوسيلة في أماكن أخرى في ظروف مشابهة، أو من أجل التواصل بين أفراد الاستخبارات الأيوبية في الظروف الحرجة.

5. الرعاية

فقد كانت الاستخبارات الأيوبية تجتهد الرعاية في جمع المعلومات عن الأعداء وكانوا فور ملاحظتهم أي تحركات للحيوش الصليبية يادرون بتبليغ القيادة بذلك⁽⁵³⁾. وأخيراً لا ننسى استخدام الطرق التقليدية في نقل الرسائل عن طريق خيول البريد، والسعاة الذين يسلمون الرسائل يدأ بيد دون استخدام وسيلة للتنقل غير المشي.

مهام الاستخبارات الأيوبية

أ. حماية الأمن الداخلي

إن وجود الممالك الصليبية في قلب بلاد الشام، فضلاً عن تعقد النسيج الاجتماعي والديني والسياسي جعل الولاءات متذبذبة وعمليات الاستقطاب للأفراد والجماعات من قبل الأطراف المتصارعة السمة العامة لعصر الحروب الصليبية؛ مما زاد من مسؤوليات الاستخبارات الأيوبية التي أخذت على عاتقها العمل على توحيد الجبهة الداخلية وتحصينها من عمليات الاختراق من قبل الأعداء مما تطلب منها القيام بعدة مهام من أبرزها:

1 - مراقبة الرعية وكبار رجالات الدولة ورفع التقارير التفصيلية عن أحوالهم وعلاقاتهم أولاً بأول⁽⁵⁴⁾ وقد ورث صلاح الدين الأيوبي هذا الاهتمام بسير ولاته وقادته وتتبع أخبارهم العامة والخاصة من نور الدين زنكي الذي كانت له عيون في كل الأمصار بطائعه بكل صغيرة وكبيرة عما يدور فيها⁽⁵⁵⁾ وفي المقابل كان يغدق الأموال على من يأتيه بتلك الأخبار⁽⁵⁶⁾.

إن التأمل لنصيحة الهروي لأحد أمراء البيت الأيوبي بضرورة بث العيون بين الرعية، يجدها تجسد الفلاسفة الذي كان يساور الأمة من تغفل الاستخبارات الصليبية في المجتمع الإسلامي وضرورة وعي الدولة الأيوبية هذا الخطر ورصده بكل الوسائل الممكنة بقول الهروي⁽⁵⁶⁾: "يجب على السلطان أن يكون له جواسيس قد عرف منهم الثقة والدين والأمانة... ليطلعونه بالأخبار من جميع الأمصار..."، ولعل أبلغ من هذا ما جاء في كتاب نصيحة الملوك لأبي حامد الغزالي (ت505هـ) والذي عاصر احتلال بين المقدس من قبل الصليبيين، حيث نبه حكام المسلمين منذ فترة مبكرة لأهمية جمع المعلومات عن العدو والصديق على حد سواء في هذه الظروف الصعبة، فقال: "على الملك أن يجعل على الرعية عيوناً ممن يدخلون في طبقاتهم، وجواسيس يتحسسون أخبارهم... كما يفعل ذلك بالملابدين له من الملوك والنظار والمجاورين له الأضداد من الأعداء، وفي كل وقت وزمان... فإن ذلك من حكم التدبير وبلغ التدبير وصواب السياسة..."⁽⁵⁸⁾.

2- مراقبة الحدود: لقد أعطت الاستخبارات الأيوبية حلّ جهدها لمراقبة الحدود لمنع تسرب الأخبار والجواسيس للأعداء، فضلاً عن السلع والسلاح، وقد نجحت الإجراءات الصارمة التي فرضتها الاستخبارات الأيوبية في نشر الأمن وإحباط محاولات الصليبيين اختراق الدفاعات الأمنية للدولة الأيوبية، ولعل ما قدمه لنا الرحالة ابن جبير (614هـ/1217م) في رحلته عن مشاهداته للإجراءات الأمنية التي كانت تقوم بها الاستخبارات الأيوبية على منافذ البلاد البرية والبحرية ما يثبت دقة هذه الإجراءات وصرامتها عند نزوله في ميناء الإسكندرية في ذي الحجة عام (578هـ/1182م)، حيث قال: "فمن أول ما شهدناه فيها يوم نزولنا أن طلع أنساء إلى المركب من قبل السلطان بما لتقييد جميع ما جلب فيه. فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكتب أسماءهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو نصاب (السدهرم والدينار) ... واستقر أحمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب وبلغ المركب، فطيف به مرقباً (أي تحت الحراسة) على السلطان أولاً ثم على القاضي، ثم على أهل الدين، ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله، فخلط سبيله وأمر المسلمين بتزليل أسبأهم ... فاستدعوا واحداً واحداً ما لكل واحد من الأسباب ... فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دق منها وما حلّ ... وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ..."⁽⁵⁹⁾ ثم يلمح بتعجب من انتشار الأمن في طول البلاد وعرضها فيقول: "ومن عجيب ما شاهدناه هذه الصحراء أنك تلقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرهما من السلع مطروحة لا حارس لها تترك هذا السبيل إما لأعباء الإبل الحاملة لها، أو غير ذلك من الأعذار، وتبقى موضعتها إلى أن يتقلها صاحبها مصنونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس"⁽⁶⁰⁾.

3- مكافحة النشاطات الجنسية: كان من مهام الاستخبارات الأيوبية متابعة خطط الصليبيين لاختراق الجبهة الداخلية الإسلامية، وقد تمكنت الاستخبارات الأيوبية من إحباط معظم الممارسات الصليبية، والتي كانت تنصّب بالدقة والابتكار، إذ لم يتركوا وسيلة من الوسائل ولا حيلة من الحيل إلا واستخدموها، ولم يتركوا شريحة من شرائح المجتمع الإسلامي إلا وحاولوا اختراقها، ولعل من أبرز أساليبهم محاولة إفساد الجند الإسلامي وشباب المدن الإسلامية بممارسة الرذيلة مع النساء الصليبيات ممن دفعن للبلاد الإسلامية لهذف مزدوج. جمع الأخبار وإفساد الطاقات الشبابية في المجتمع الإسلامي، ويشخص لنا المؤرخ أبو شامة وعي الاستخبارات الأيوبية لهذا الأسلوب حين قال: "ووصلت في مركب ثلاثة امرأة فرنجية مستحسنات، اجتمعن من الجزائر واتدبن إلى الجزائر، واغتربن لإسفاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهم للأشقياء، وأخن لا يمتنع من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قرية ما فوقها قرية، ولا سيما من اجتمعت فيه غربة وغربة. وأبق من عسكرنا من المماليك الأغنياء والمداير الجاهلاء جماعة حذمهم الهوى، واتبعوا من غوى منهم من رضي للذة بالذلة .."⁽⁶¹⁾.

ولعل ما كان يلقى الاستخبارات الأيوبية هو تنامي علاقات الاستخبارات الصليبية مع بعض الأعراب، رغم قسوة الصليبيين في معاملتهم، والتكبل من قصر في خدمتهم، فقد أعدم ريتشارد قلب الأسد على سبيل المثال في

العاشر من شعبان (587هـ/1191م) حاسوسين من حواسيسه من الأعراب لكونهما قد أخطأ ذات مرة في جلب المعلومات الصحيحة عن الجيش الأيوبي⁽⁶²⁾.

لقد كانت الاستخبارات الأيوبية تراقب تحركات الأعراب ممن كانوا لا يتورعون في جلب المسون والأقوات والأخبار للصليبيين، فضلاً عن عملهم كأدلاء للجيوش الصليبية، وقد استخدمت القيادة الأيوبية عدة وسائل لقطع الصلات ما بين الأعراب والصليبيين منها: مصادرة الأموال والأراضي والمخاضيل كما فعلت مع قبيلة حذام التي أمرت بالانتقال من الشرقية إلى البحيرة من نواحي الإسكندرية، بسبب هريب الحبوب للصليبيين⁽⁶³⁾.

أما قبيلة بني عباد التي كانت تقطن منطقة صرخد الملاصقة لمنطقة حوران من أعمال دمشق، فقد تم ترحيلها من هذه المنطقة وإقطاعهم إقطاعات أخرى في مناطق بعيدة؛ لأنهم كانوا يشكلون خطراً على المنطقة الواقعة بين مصر والشام، ولأنهم كانوا يعرفون غير طرقها ومسالكها، فضلاً عن هريبهم الحبوب للصليبيين⁽⁶⁴⁾.

كما قام صلاح الدين الأيوبي بشن غارات على الأعراب المقيمين حول الكسرك والشوبك للجلولة دون مساعدتهم للصليبيين، لا بل سوجهم إلى الشام لحل المشكلة حلاً جذرياً، وقد أوضح صلاح الدين الأيوبي في رسالته التي بعث بها إلى نور الدين محمود سبب قسوته على هؤلاء الأعراب بقوله: "سبب هذه الخدمة إلى مولانا للملك العادل ... أن لا يبقى في بلادهم أحداً من العربان، وأن ينقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان، ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد... ترحيل كثير من أنفارهم والحرص في تبديل ديارهم إلى أن صار العدو اليوم لا يجد بين يديه دليلاً ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبلاً"⁽⁶⁵⁾.

ولعل من أبرز العمليات الاستخبارية الأيوبية في مكافحة التحسس تلك التي تم فيها إحباط محاولة للاستخبارات الصليبية هريب نسخة من رسالة والي القدس المسلم إلى صلاح الدين الأيوبي، والتي يوضح فيها سوء أحوال المدينة وحاجتها للمؤن والعدد، والمدد العاجل، في وقت كان يتهاى فيه الصليبيون لإعادة احتلال المدينة، فقد عزم ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد على محاصرتها والاستيلاء عليها، إلا أن تمكن الاستخبارات الأيوبية من إلقاء القبض على مجموعة من حواسيس الصليبيين في القدس، وهم يحملون تلك الرسالة المهمة والخطيرة في تلك الظروف الصعبة التي تعيشها المدينة المقدسة أفضل المخطط الصليبي في إعادة احتلالها⁽⁶⁶⁾.

إلا أن هذه النجاحات التي حققتها الاستخبارات الأيوبية في مكافحة عمليات التحسس الصليبية كان يقابلها بعض الإخفاقات، فقد تمكنت الاستخبارات الصليبية من اختطاف القائد سعد الدين شاهنشاه ابن الملك المظفر تقي الدين عمر سنة (573هـ/1177م) بعد أن استدرجته الاستخبارات الصليبية وفق خطة مدروسة بمساعدة بعض المستأمنين في دمشق حيث سلم إلى فرسان الداوية⁽⁶⁷⁾، فبقي في الأسر حتى استفكه صلاح الدين تمال كثير وفكاه الكثير من أسرى الصليبيين⁽⁶⁸⁾.

كما أن أحد أسباب سقوط مدينة عكا بأيدي الصليبيين هو نجاح الاستخبارات الصليبية في اختراق الجبهة الداخلية للمدافعين عن المدينة، خاصة النصارى الذين كانوا على خزائن المال، إذ عمدوا إلى المماطلة في صرف الأموال لتجنيد العسكر مما جعل الناس يتفرقون وينقلص عدد المدافعين عن أسوار المدينة⁽⁶⁹⁾ وفي الوقت نفسه خرج

بعض أهالي البلد وأعان نقابي الصليبيين حتى وقعت ألبان السور وأبراحه⁽⁷⁰⁾.

4. مراقبة السفراء

من المؤكد أن كلاً من الأيوبيين والصليبيين كان على وعي تام بأهداف الدبلوماسية ومهامها المتنوعة، والتي منها تقديم التقارير الاستخبارية الشاملة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية، والأمنية وحتى المعنوية للبلاد التي يعملون فيها؛ لذا كانت الاستخبارات الأيوبية تحرص كل الحرص على مراقبة السفراء، ومنعهم من الحصول على المعلومات التي يسعون للحصول عليها، ولعل ما سطره المؤرخ الأيوبي ابن شداد^(632هـ/1234م) فيه ما يدل على وعي الاستخبارات الأيوبية التام بنوايا الصليبيين وأهدافهم من تكرار إرسال السفراء للمسلمين أثناء العمليات العسكرية، ففي عام (587هـ/1191م) وبالتحديد في جمادى الآخرة وأثناء اشتداد الحصار على مدينة عكا، أرسلت القيادة الصليبية رسلاً لإجراء المفاوضات بهدف عقد اتفاقية سلام، بيد أن كلا الطرفين كان يحاول معرفة نوايا الطرف الآخر، والتعرف إلى الروح المعنوية لدى الخصم⁽⁷¹⁾، ويؤكد ذلك العماد الأصفهاني⁽⁷²⁾ حين قال: "وكان غرض الفرنج من تكرير الرسائل تغتفر العزيمات".

ولعل من أنجح العمليات الاستخبارية الأيوبية هي تلك التي تم فيها إفشال مؤامرة كبرى نسجت خيوطها في مصر بالتعاون مع ملك بيت المقدس الصليبي، وملك صقلية النورماني فضلاً عن الحشاشين في الشام، والعناصر الناقمة على صلاح الدين من بقايا الحكم الفاطمي أمثال: الشاعر عمارة اليمني⁽⁷³⁾، والقاضي العوريس داعي دعاة الشيعة الإسماعيلية، ومؤمن الخلافة جوهر بن عبدالله وغيرهم، وكان الهدف من هذه المؤامرة القضاء على صلاح الدين الأيوبي، وإعادة الخلافة الفاطمية من جديد، وكان هذا في عام (569هـ/1174م).

وكانت بداية نجاح الاستخبارات الأيوبية في كشف خيوط هذه المؤامرة عندما تمكنت من إلقاء القبض على سفير للتآمرين أثناء توجهه إلى ملك بيت المقدس، فقد شككت الاستخبارات الأيوبية برجل رث الثياب بتمتعل حذاءً جديداً، فقبضوا عليه وفحصوا الحذاء فإذا فيه رسالة تعرض على الصليبيين غزو مصر وتقديم المساعدة لهم، فسُلم السفير والرسالة إلى صلاح الدين الأيوبي، والذي أمر بدوره بكنمان الخمر حتى يتسنى له كشف بقية عناصر المؤامرة، وبعد التحقيق تبين أن كاتب الرسالة يهودي من الرهط، فاستدعي للتحقيق معه، فاعترف باشتراكه بالمؤامرة، وأنه كتب الرسالة بأمر من مؤمن الخلافة جوهر بن عبدالله في مصر⁽⁷⁴⁾.

ولم يكتفِ المتآمرون بالاتصال بعموري الأول ملك بيت المقدس لغزو مصر في الوقت الذي يشعلون الثورة في القاهرة وبذلك يقع صلاح الدين بين نارين، وإنما اتصلوا بوليم الثاني النورماني ملك صقلية ليهاجم بأسطوله الإسكندرية في الوقت الذي يدهم الصليبيون مصر من ناحية الشرق، كما أرسلوا سفارة إلى شيخ الجبل مقدم الإسماعيلية يقولون له: "الدعوة واحدة والكلمة جامعة" ويطلبون منه اغتيال صلاح الدين الأيوبي⁽⁷⁵⁾.

لقد اختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه في اليمن موعداً لتنفيذ مؤامرتهم، حتى لا يحل محل أخيه في حالة مقتله، كما عينوا الجهاز الحكومي الجديد، وعينوا الخليفة والوزير وتقاسوا الأملاك بحيث أصبح كل شيء معداً للتنفيذ، إلا أن الذي أفسد هذا العمل المتقن هو نقطة الاستخبارات الأيوبية التي كانت ترصد هذه المؤامرة لحظة

بلحظة من خلال رجالها الذين تمكنوا من اختراق المتآمرين في مصر وفي بيت المقدس وكان على سبيل المثال عسالم التفسير والفقه والوعظ المشهور زين الدين علي بن نجا (599هـ/1200م) أحد رجال استخبارات صلاح الدين قد كسب ثقة المتآمرين، وكان ينقل بدوره تفاصيل تلك المؤامرة أولاً بأول، وهذا ما أشار إليه القاضي الفاضل حين قال: "فدسنا إليهم في طائفتهم من داخلهم فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم" ومن المدهش أن الاستخبارات الأيوبية لم تكن في عجلة من أمرها، بل كانت تمتاز بالصبر وطول النفس لتكشف لها خيوط المؤامرة كلها ومن يقف وراءها من العناصر الأجنبية، إذ ما لبث أن جاء سفير عموري الأول ملك بيت المقدس يحمل الهدايا وعبارات الود والتقدير لصلاح الدين في القاهرة راجياً في المهادنة في ظاهر الأمر، ولكنه في الحقيقة جاء ليشرع على الترتيبات النهائية مع المتآمرين قبل التنفيذ، ولكن الاستخبارات الأيوبية وضعته تحت المراقبة المشددة خاصة بعدما جاءت التقارير من عملاء الاستخبارات الأيوبية في بيت المقدس تؤكد أن السفير الصليبي (حرج) جاء إلى مصر لينتقم من عطلت المؤامرة، فأخذ صلاح الدين حذره، وأرسل به من يراقبه من بعض أقباط مصر، وقد شرح صلاح الدين الأيوبي ذلك بكل وضوح في رسالته التي بعث بها إلى نور الدين محمود حين قال: "وعند وصول حرج في هذه الرقعة الأحمر، رسولاً إلينا يزعمه، ورد إلينا كتاب مما لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول عاتلة لا رسول مجاملة، وحامل بلية لا حامل هدية، فأوهناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه..." حيث أحبط الرسول حرج بعملاء لصلاح الدين من أقباط مصر والذين تمكنوا من كسب ثقته فأمنى لهم تفاصيل المؤامرة، فقاموا بإبلاغ صلاح الدين، عندها أصدر أوامره بإلقاء القبض على المتآمرين، وأعدم زعماءهم في رمضان سنة (569هـ/1174م) (76) دون أن يعلم الأسطول النورماني والمكون من ستمئة سفينة تحمل ما يقارب الثلاثين ألفاً بفشل المؤامرة فهاجم الإسكندرية حيث كان الجيش الأيوبي له بالمرصاد فأوقع فيه هزيمة نكراء (77).

وهكذا ظهرت لنا الاستخبارات الأيوبية في أعلى درجات الاحتراف والقدرة العالية على المتابعة والتجسس لمختلف العناصر والتي مكنتها من الحصول على المعلومات الكافية عن خصومها في الداخل والخارج، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على سعة أفق هذه المؤسسة، واستيعابها الجيد للبيئة التي كانت تعمل فيها.

ب. توجيه العمليات العسكرية

حصار الحصون والقلاع

إن التأمل للتذكرة الهروبية والتي كتبت في عصر صلاح الدين الأيوبي، يجد معلومات ثرة تسلط الضوء على الدور الكبير الذي كانت تلعبه الاستخبارات الأيوبية في فتح القلاع والحصون حيث ذكر أن على القائد المحاصر أن يكون على اطلاع جيد بوساطة جواسيسه بأوضاع البلد المحاصر من حيث كمية الذخائر الموجودة عندهم، أو مقدار الأسلحة التي في حوزة المدافعين، وعدد المقاتلين فيها، وكيفية حصول أهل المدينة على الماء... وعلى القائد مكانة أهل الحصن ومقدميه، ويضمن لهم ما يطلبونه، وليظهر لهم أن بعضهم يكاتبونه ويريدونه ولا يعين أحداً منهم، وليترك الأمر مكتوماً، فيظن كل واحد منهم في صاحبه... (78).

أما عن أساليب الاستخبارات الأيوبية في دعم القلاع والحصون والمدن المحاصرة من قبل الصليبيين فكانت تدعو

إلى الإعجاب، فعندما اشتد الحصار الصليبي لمدينة عكا، وضاعت المؤن على المحاصرين، هندست الاستخبارات الأيوبية في العشر الأخير من رجب عام (586هـ/1190م) إغاثة للمدينة بطريقة في غاية الذكاء، فقد جهزت سفينة كبيرة في بيروت شحنتها بالأقنوت، وطلبت من رجالها الذين رافقوا السفينة بأن يتزوا برمي الصليبيين، وبأن يحلقوا لحاهم، ويضعوا الصليبان في أعناقهم، ويظهروا خنازير على سطح السفينة، وهذه الحيلة تمكنت هذه السفينة من العبور من وسط سفن الصليبيين دون أن يشكوا فيها، حيث تمكنت من إيصال المؤن للمدينة المحاصرة (79).

لقد بذلت الاستخبارات الأيوبية جهوداً مضنية من أجل الحيلولة دون سقوط مدينة عكا بأيدي الصليبيين، ولعلّ أروع ما تفتقت عنه العقيلة الاستخبارية أنها تمكنت من الاستفادة من طاقات أحد الشبان في تحضير محمول كيمائي تمكنت الاستخبارات الأيوبية عن طريقه من تدمير ثلاثة أبراج كانت تضيق المدينة، وتفصيل الأمر أن الصليبيين صنعوا ثلاثة أبراج من خشب وحديد، ثم ألبسوها الجلود المسفاة بالخل، يسع الواحد منها ما يزيد على خمسةة نفر من المقاتلين، حتى أنها استعصت على الوسائل المعروفة كلها لتدميرها، عندها تطوع شاب نحاس اسمه علي ابن شيخ النحاسين يعود في أصوله إلى مدينة دمشق، حيث تمكن من مزج بعض المواد الكيمائية، والتي تم قذفها على الأبراج حيث تمكن من إشعال النيران فيها، وتدميرها وتحلّص المدينة من شرها ومما رفع من معنويات المسلمين المحاصرين (80)، كذلك يجب أن لا ننسى ما قام به عيسى العوام من دور مشرف في نقل الرسائل والأموال للقوات الأيوبية المحاصرة في عكا (81).

تدمير الأسلحة الاستراتيجية للعدو

كان من مهام الاستخبارات الأيوبية متابعة ما يستجد من صناعات متطورة عند الصليبيين والعمل على تدميرها قبل دخولها إلى الخدمة الفعلية، ومن للمهام الناجحة التي قامت بها في هذا المجال تدمير منجنيق عملاق أنفقت عليه مبالغ كبيرة، فبعد أن رفعت الاستخبارات الأيوبية تقريراً إلى صلاح الدين الأيوبي يفيد بأن الصليبيين أنجزوا صناعة منجنيق كبير تكلف ألفاً وخمسةة دينار من أجل استخدامه في حصار عكا، وعلى ضوء هذا التقرير أمر صلاح الدين مجموعة من قواته الخاصة لتدمره، فأحرقوه وحرّموا الصليبيين من استخدامه (82).

توجيه المعارك العسكرية

معركة مرج عيون (575هـ/1179م)

تعد هذه المعركة من المعارك الحاسمة في تاريخ الحروب الصليبية، إذ تمكن صلاح الدين الأيوبي عن طريق استخباراته من رصد تحركات الصليبيين ومتابعة حشودهم وتحركاتهم ساعة بساعة، حيث تمكن من مباغتتهم قبل أن يكمل الملك بلدوين وبقية القادة الصليبيين من استكمال استعداداتهم، حيث هزموا هزيمة نكراء أسر مائتان ونيف وسبعون من زعمائهم منهم: صاحب طبرية، وصاحب الرملة، وصاحب جنين، وصاحب نابلس وغيرهم، مما رفع معنويات المسلمين، ودّمّر الروح المعنوية للصليبيين لسقوط هذا العدد الضخم من القادة الأسر (83).

معركة بيسان (579هـ/1183م)

فقبل هذه المعركة وصلت تقارير الاستخبارات الأيوبية التي توضح بشكل مفصل، عدد قوات العدو، ونوعية الأسلحة التي يحملها، وأسماء قادة الجيش، حيث ذكرت بأن الأمير ابن هنفري هو الذي يتولى القيادة العامة للصليبيين ومعه ألف وخمسمئة تركيولي فضلاً عن ألف وخمسمئة رمح⁽⁸⁴⁾، إلى جانب حشد خمسة عشر ألف رجل ما بين طاعن وضارب وناشب ونابل، كل هذه المعلومات جعلت القيادة الأيوبية على بصيرة من أمر عدوها فوضعت خططها على يينة، فأوقعت بالعدو وكسبت جولات المعركة⁽⁸⁵⁾.

معركة حطين (583هـ/1187م)

تعد هذه المعركة نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي، إذ شكلت بداية رجحان كفة المسلمين، وهو تحول كان للاستخبارات الأيوبية دور كبير فيه، فقد استطاع صلاح الدين الأيوبي قبل فترة من موقعة حطين من الكشف عن الكثير من نقاط القوة والضعف في الجيش الصليبي، حيث كانت الاستخبارات الأيوبية تزود قيادتها بتحركات الصليبيين ونواياهم أولاً بأول قبل نشوب المعركة، كما تمكنت الاستخبارات الأيوبية من استدراج القوات الصليبية إلى السهل الذي حددته القيادة الأيوبية للاشتباك مع العدو؛ مما حقق النصر المؤزر الذي توج بتحرير مدينة القدس من الاحتلال الصليبي بعد احتلال دام واحداً وتسعين عاماً⁽⁸⁶⁾.

الاستخبارات الأيوبية في النجاح والإخفاق

يبدو أن عام (588هـ/1192م) يمثل نقطة تحول في العمل الاستخباري الأيوبي والصليبي على حد سواء، ففي هذه السنة تمكنت الاستخبارات الأيوبية من التغلغل في صفوف الصليبيين حتى تمكنت من رصد مداولاتهم الخاصة التي كانت تجري بين كبار القادة، ولعل التقرير الذي أرسلته الاستخبارات الأيوبية إلى قيادتها في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة سنة (588هـ/أيلول 1192م)، والذي يكشف النوايا الدفينة لكل من الإنجليز والفرنسيين فيما يخص عدم مواصلة الحرب، ورغبتهم في عقد الصلح مع الأيوبيين ورغبتهم في الرجول إلى بلادهم فيه الدليل الناصع على ما حققته الاستخبارات الأيوبية من نجاحات في عمليات الاحتراق لصفوف أعدائها، فقد جاء في التقرير أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس، أو الرجول إلى بلادهم فذهب الفرنسيون إلى الصعود إلى القدس، وقالوا: نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه، وقال الإنجليز: إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه، ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب؟ فقالوا له نشرب من نهر تقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ، فقالوا: تنقسم قسمين: قسم يذهب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى في البلد في المذلة، ويكون الشرب في اليوم مرة واحدة، فقال: إذا يأخذ المسكر التراقي الذي يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقي، ويذهب دين النصرانية.

فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم، وحكموا الثلاثة اثني عشر منهم وحكم الاتنا عشر ثلاثة منهم، وقد باتوا على حكم الثلاثة فيما يأمرهم به بفعل، فلما أصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى

الآخرة (588هـ/4 أيلول 1192م) راحلين نحو الرملة، وعلى أعتاقهم ناكسين⁽⁸⁷⁾.

فانظر لهذا التقرير الذي يدل على مدى احترام كاتبه والدرجة الرفيعة التي وصلت إليها التقارير الاستخبارية حيث تضمن هذا التقرير أدق التفاصيل إلى جانب تلك المعلومات الثمينة عن مبدأ الشورى، وكيفية اتخاذ القرارات في المواقف الصعبة عند الصليبيين.

وفي هذا العام نفسه (588هـ/1192م) الذي حققت فيه الاستخبارات الأيوبية أعظم انتصاراتها على الصليبيين تمكن كذلك الصليبيون عن طريق استخباراتهم بتحقيق انتصار عظيم على الأيوبيين وضمهم في الصميم عندما رصدت الاستخبارات الصليبية مساعدات ضخمة متوجهة من مصر إلى الشام متخفية على هيئة قافلة تجارية، إلا أن الاستخبارات الصليبية رصدتها واستولت عليها؛ مما رفع معنويات الصليبيين في الوقت الذي شكلت هذه العملية ضربة موجعة للحيش الأيوبي وتفصيل الأمر كما يقدمه المؤرخ ابن شداد: "إن القيادة الأيوبية طلبت الإمدادات العسكرية والاقتصادية من مصر استعداداً للدفاع عن القدس، فتجهز المسكر المصري بما يملكه من عدد وعدة على هيئة قافلة كبيرة خرجت إلى بلاد الشام تحت قيادة الأمير فلك الدين أخى الملك العال لأمه-وكان الصليبيون قد علموا بخبر مجيء القافلة من خلال حواسيسهم من العرب، وثلاثة من حواسيسهم النصارى السوريين الذين كانوا يتكلمون العربية كأهلها، إذ قدموا تقريراً مفصلاً عنها، وأنها قافلة عظيمة يجرسها عدد كبير من الرجال وهي تسير خلال روابي الجفر بعيداً عن عسقلان باتجاه البحر الميت بمحاذين سفوح التلال جنوبي الخليل، وبعد أن أكدت الاستخبارات الاستطلاعية الصليبية صحة المعلومات لقيادتها، حشد ريتشارد قلب الأسد جزءاً من قواته لمواجهة القافلة، وعندما وصلت القافلة إلى منطقة حويلفة في فلسطين، قرر ريتشارد أن يستطلع خبر القافلة بنفسه، فارتدى الملابس العربية، واستصحب معه بعض الجنود، وأمر العرب الذين يعملون معه كأدلاء بإرشاده على طريق البحر، فوصل إلى مكان القافلة، وطاف حولها ورأى ما كانت تحويه من عدد ومتاع، وفي الحادي عشر من جمادى الآخرة (588هـ/1192م) هاجمت القوات الصليبية القافلة، وتم الاستيلاء عليها بعد أسر حوالي خمسة رجل، وغنم ثلاثة آلاف جبل⁽⁸⁸⁾.

وهكذا كانت الاستخبارات عند كلا الطرفين توجه العمليات العسكرية والسياسية، وهي التي يدين لها كلا الطرفين في تحقيق انتصاراتها على الأرض.

الخاتمة

من خلال معالجة هذا الموضوع خرجت الدراسة بالملاحظات الآتية:

1- إن الاستخبارات الأيوبية في عهد صلاح الدين الأيوبي وصلت إلى درجة عالية من التنظيم والاحتراف والتخصص والتفوق على الاستخبارات الصليبية بدليل هذه الانتصارات المتوالية التي توحت بتحرير بيت المقدس وحصر الصليبيين في السواحل الشامية، فضلاً عن نجاحها في استقطاب بعض كبار قادة الصليبيين، والذين كانوا يزودون القيادة الأيوبية بمعلومات قيمة استثمرت بشكل جيد في تحقيق الانتصارات السياسية والعسكرية على حد سواء.

- 2- إن تركيبة الاستخبارات الأيوبية المعقدة، وشمولية نظرها، واستيعابها لبيئتها، وتعدد مجالات نشاطاتها، ونوعية الأهداف التي كانت ترصدها، وتطور وسائل اتصالها، ومرونة استقطابها لمختلف العناصر هو دليل من الأدلة الكثيرة على تطور هذا الجهاز.
- 3- من مظاهر استيعاب الاستخبارات الأيوبية للبيئة المعقدة التي كانت تعمل فيها، أنها جندت في صفوفها، المسلم، والنصراني، العربي وغير العربي، الرجل، والمرأة، وبعبارة أخرى كانت هناك عناصر في صفوفها تمثل الطبقات كلها بغض النظر عن اللون أو الجنس أو الدين، لا بل إن استيعاب هذه البيئة تمثل في تحويل عوامل المهدم إلى عوامل بناء عندما استثمرت طاقات اللصوص في تحقيق أهداف الأمة العليا، عندما شكلت فرقة خاصة هم، وظيفتها اختطاف الجنود وقادة الجيوش الصليبية.
- 4- تعد فرقة البرك من أهم فرق الاستخبارات الأيوبية لتعدد مهامها، والدور الذي لعبته في تزويد القيادة الأيوبية بالتقارير التفصيلية عن تحركات الصليبيين، فضلاً عن المساهمة في نصب الكمائن واستدراج العدو إلى المواقع التي حددتها القيادة الأيوبية للاشتباك معه.
- 5- تبينت الاستخبارات الأيوبية لأهمية المعلومات التي يمكن استخلاصها من الأسرى الصليبيين؛ لذا كانت القيادة الأيوبية تشرف بشكل مباشر على استجوابهم، مستعينة بطاقم من المترجمين المؤثوقين ممن كان يقوم بالترجمة الفورية أثناء الاستجواب.
- 6- كانت الاستخبارات الأيوبية على وعي تام بأهداف الدبلوماسية الأمنية والتجسسية؛ لذا كانت دائمة المراقبة للسفراء الأجنبي، وتسجيل الملاحظات كلها المتعلقة بتحركاتهم واتصالاتهم بالعناصر المحلية، وبفضل هذه المراقبة تم إفشال العديد من المؤامرات.
- 7- أدركت الاستخبارات الأيوبية الأهمية القصوى لمراقبة الحدود لمنع تسرب السلع الاستراتيجية والأخبار للأعداء فجعلت من أولوياتها تطوير آلية للمراقبة والتفتيش للداخل والخارج من المنافذ البرية والبحرية حيث كانت تخضع السلع والأفراد للتفتيش الدقيق، وفي بعض الحالات يتم الاستجواب لمن يشك فيه مما انعكس بشكل إيجابي على انتشار الأمن، وإحياء محاولات تقديم الأخبار والسلع للأعداء.
- 8- ابتكرت الاستخبارات الأيوبية أساليب مختلفة لاختراق الدفاعات الأمنية للصليبيين فحوزت لأفرادها حلق لغاهم، وليس الصليبان، واصطحاب الخنازير للتمويه والخداع، كما طورت مواد كيميائية لتدمير تحصينات العدو، إلى غير ذلك من الأساليب التي توجت باستقطاب بعض الأمراء الصليبيين من خلال إغداق الأموال والهدايا وتقديم بعض الخدمات.
- 9- لم تغفل الاستخبارات الأيوبية أهمية أمن المعلومات، فحرصت على تطوير أساليب حفظها، فابتكرت شفرة خاصة بها، وحرصت كل الحرص على عدم كشف أسماء عناصرها.
- 10- من معالم نضج الاستخبارات الأيوبية عملها باستمرار على رفع مرونة الاتصال بين عناصرها وبين القيادة؛ لأن وصول الخبر في الوقت المناسب هو الذي تحرص عليه أجهزة الاستخبارات كلها، فوصول الخبر بأقصر

وقت ممكن بمنح القيادة لاستثمار هذا الخبر بعد تحليله وبلورته إلى خطط عملية؛ لذا نجد الاستخبارات الأيوية تركز على البريد الجوي (الحمام الزاجل) في نقل أخبارها المهمة، حيث بنيت شبكة ضخمة لهذا النوع من البريد غطت مصر والشام، ناهيك باستخدام الوسائل الأخرى.

11- إن الاستخبارات الأيوية لم تحمل الجبهة الداخلية، بل جعلت حماية الأمن الداخلي من أبرز أولوياتها، فنشرت رجالها في المدن والأصوار كلها، حيث كانوا يزودون القيادة الأيوية بالتقارير المفصلة، وبالتالي كانت القيادة الأيوية تحيط بكل مؤامرة تحاك ضدها، وكانت تحيطها قبل أن تستكمل نسج خيوطها.

12- لم تغفل الاستخبارات الأيوية أهمية متابعة ما يقوم به الأعداء من ابتكارات وصناعات في المجال العسكري، والعمل على تدميرها قبل دخولها في الخدمة الفعلية.

13- من الملاحظ بأن الاستخبارات الأيوية كانت هي التي توجه الحرب والسلام، كما كانت الاستخبارات الصليبية، لا بل يجب أن لا ننقل من أهمية الاستخبارات الصليبية التي تمكنت في بعض الحالات من تحقيق بعض النجاحات على الاستخبارات الأيوية، وهكذا تؤثر الدراسة بأن هذا النوع بحاجة لمزيد من البحث والتنقيب لكشف العديد من جوانبه الغامضة، وتضمن دور هذه المؤسسة في جعل شخصية صلاح الدين الأيوية تحتل هذه المكانة المرموقة في وجدان الأمة الحضاري.

الهوامش

- 1- إن المتأمل لمعاجم اللغة يلاحظ أن لفظة الاستخبارات جاءت بمعنى السؤال عن الخبر، ولا تخرج كثيراً عن هذا المفهوم في دوائر المعارف والمعاجم العسكرية، فهي تدور في جملتها حول اتباع خطوات مدروسة وموجهة لاستخدام كافة الوسائل الممكنة للحصول على كافة المعلومات عن الخصم أو الحليف، أو المحاد وتصفيتها وتحليلها وتفسيرها وتقديمها لصاحب القرار في الوقت المناسب لوضع استراتيجية الدولة في مختلف المجالات لمزيد من التفاصيل، انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص226؛ محمد جمال الدين محفوظ: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، ص180-181؛ صلاح نصر: حرب العقل والمعرفة، ص132-134.

Chermn. Kent, The Strategic Intelligence for American World Policy, 1953.

- 2- بدأت بحوثي في هذا الحقل بـ: كتاب المحاورات في الدولة الإسلامية، الرياض 1988م، ثم ببحث الكتبان في التراث العربي الإسلامي، مجلة الأمن السعودية 1991م، وتلاه بحث عن الكتابة السرية والرموز في التراث العربي الإسلامي، جامعة الملك سعود، 1991م، فكتاب دور المرأة في الاستخبارات الإسلامية، دار الإصلاح 1994م، ثم بحث توسيع مدى الإصرار لدى العاملين في الوحدات الخاصة، دي، مجلة الأمن والقانون (كلية شرطة دي) 2002م؛ ثم مدخل لدراسة الاستخبارات الأموية، مجلة

- جامعة الشارقة، مج2، ع1، فبراير، 2005م، ثم مدخل لدراسة أمن الطرق في الحضارة الإسلامية (غاذج مختارة) مجلة جامعة الشارقة، 2007م 1 وأخيراً كتاب تاريخ أئمن المعلومات في الحضارة الإسلامية، دار القلم، دبي، 2007م
- 3- صلاح الدين الأيوبي، هو يوسف بن أيوب بن مروان بن شاذي، كردي الأصل، ولد عام 532هـ/1137م في قلعة تكريت، وتوفي سنة 589هـ/1193م، كان محافظاً على الصلوات في أوقافها، زاهداً في متاع الدنيا، مات ولم يخلف إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وحرماً (أي ديناراً) واحداً من الذهب، ولم يترك داراً ولا عقاراً، ولا يستأنأ. عن حياته وأحلافه انظر: أبو شامة: الروضتين، ج4، ص375-405؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين، النوادر السلطانية ص12-43؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج6، ص140؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص224-225؛ المرتضى الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، ص68؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص656-661.
- 4- المعنى الإصطلاحي الضيق للحروب الصليبية يقصد به تلك الحروب التي شنتها أوروبا ضد الإسلام بخاصة في بلاد الشام والأناضول ومصر لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم، واسترجاع البيت المقدس وقبر المسيح وذلك خلال الفترة (1096-1291م)، وقد أتت هذه التسمية من صليب صغير أحمر مصنوع من القماش كان يلصق على كفف الفارس المزمع السفر إلى بلاد الإسلام للحرب، أما المعنى الواسع القضااضي للحروب الصليبية فيطلق على الحروب التي شنتها أوروبا المسيحية بعامه ضد مخالفيها من الأديان والملل والنحل والمذاهب جميعها باسم الصليب ونعت رايته؛ لحماية الديانة الحقيقية من أرباب الديانات الأخرى ومن المخالفين والزنادقة المنشقين من المسيحيين أنفسهم، وهي هذا المعنى قدرة جداً، انظر: محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، ص17-19؛ وعن ماهية الحروب الصليبية انظر: قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، كتاب عالم المعرفة رقم149، الكويت، مايو، أيار 1990م.
- 5- لمزيد من التفاصيل عن فرقة الحشاشين انظر: برنارد لويس: الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، ص14-15؛ سلامة محمد الهري: المحابرات في الدولة الإسلامية، ص213-225؛ محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها؛ محمد عثمان الخشت، حركة الحشاشين تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي.
- 6- عن أوضاع بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي انظر: علي عودة القامدي: بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي.
- 7- السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص393-394؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: بحوث ودراسات في العصور الوسطى، ص170-171.

- 8- البنداري: منا الرق الشامي، ص124؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص26.
- 9- ابن شداد، المصدر السابق، ص20؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص451، 532، 546.
- 10- انظر الباحث التالية لتجد كل هذه العناصر قد استخدمت في مختلف الدوائر الاستخبارية الأيوبية.
- 11- الأرسى الأنصاري: تفريع الكروب، ص7؛ وانظر: نصائح لمينة أخرى سطرها كتب التراث على مر فترات التاريخ والتي توضح صفات رجل الاستخبارات الناجح مثل ما كتبه: الهرملي الشعراي في مختصر سياسة الحروب، ص23-25، الهروري في التذكرة الهروية في الحيل الحريسة، ص15-16، وانظر كذلك سلامة محمد الهرفي: المخابرات في الدولة الإسلامية، ص230-238.
- 12- البزك: مصطلح فارسي، معناه الطلائع، ويستعمل للدلالة على الفرقة التي تكلف باستكشاف أخبار العدو قبل الدخول في المعركة، انظر: محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص177.
- 13- أبو شامة: كتاب الروضتين، ج4، ص1274؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص233؛ العماد الأصفهاني، ص546، 535، 528، 493، 482، 335.
- 14- محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص177-178.
- 15- عن تقارير البزك انظر: ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج2، ص389-390؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج4، ص99.
- 16- النوادر السلطانية: ص221-222؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج2، ص264؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج4، ص269.
- 17- ابن شداد: المصدر السابق، ص223.
- 18- انظر أمثلة من عمليات الاختطاف، ابن شداد: المصدر السابق، ص196، 41، 249، 250؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص181.
- 19- ابن واصل: المصدر السابق، ج2، ص287؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص288؛ ابن الأثير، الكامل، ج10، ص198.
- 20- أبو شامة: المصدر السابق، ج4، ص266.
- 21- ابن شداد: المصدر السابق، ص249، 250.
- 22- نفس المصدر السابق والصفحات.
- 23- أبو شامة: المصدر السابق، ج4، ص272.
- 24- ابن شداد: المصدر السابق، ص20.

- 25- لمزيد من التفاصيل عن تقارير المستأمنين الاستخبارية، انظر: ابن شداد: المصدر السابق، ص169، 161؛ ويذكر العماد الأصفهاني، في كتابه "الفتح القسبي في الفتح القدسي"، ص460 بأن صلاح الدين استخدم المستأمنين أيضاً في المهام العسكرية القتالية حيث قال: "وفي يوم الاثنين ثاني عشر ذي الحجة، عاد المستأمنون من الفرنج الذين أمضهم السلطان في براكيس (ضرب من السفن) ليغسروا في البحر، ويكونوا أيضاً لنا حواسيس، فرجعوا وقد غنموا وغلبوا وكسروا وكسبوا وسروا وأسروا".
- 26- ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص245؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص225.
- 27- النوادر السلطانية، ص250، 232، 89، 40.
- 28- البرق الشامي، ج3، ص180.
- 29- ابن شداد: المصدر السابق، ص250.
- 30- الإنداري: سنا البرق الشامي، ص77-78؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص334-337؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص11-16؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص63.
- 31- ابن شداد: المصدر السابق، ص196-197.
- 32- أوقعت بزوحها بوهيموند عند الملك ليون الثاني الأرميني حتى انتهى الأمر بوقوعه أسيراً في يد الأرمين سنة 1194م، ورغم كل ذلك فقد ظل أمير أنطاكية متعلقاً بها، ورفض أن يتخلى عنها مما جعل البطريق إيربي دي ليموج يوقع عليه قرار الحرمان بتهمة الزواج من امرأتين أو ثلاث، وقد أدى ذلك إلى ثورة بوهيموند ضد الكنيسة ورجائها، انظر: سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج2، ص739.
- 33- ابن الأثير: الكامل، ج10، ص173؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص798.
- 34- برزية: حصن قرب السواحل الشامية على من جبل شاهق، يضرب به المثل في الحصانة والمناعة، يحيط به أودية محيطة من كل جوانبه، استولى عليه الإفرنج مدة حتى استعاده صلاح الدين سنة 584هـ، انظر: ابن شداد: المصدر السابق، ص104، حاشية رقم1.
- 35- النوادر السلطانية، ص106؛ وانظر أيضاً: ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص173.
- 36- الروضتين، ج4، ص403؛ وانظر: إشارات أخرى عن الترجمة، ابن شداد: المصدر السابق، ص89، 40، 26.
- 37- الفتح القسبي في الفتح القدسي، ص360؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص118.
- 38- نهاية الأرب في فنون الأدب، ج8، ص212-213.

- 39- هناك من يذهب إلى أن عيسى العوام كان من المسيحيين الشرقيين، وكان ما يقوم به هو دليل على كراهية هؤلاء المسيحيين للإفرنج المعتدين، انظر: عبد اللطيف حمزة: صلاح الدين بطل حطين، ص 128؛ قنري قلنجي: صلاح الدين الأيوبي، ص 381.
- 40- لمزيد من التفاصيل عن هذه المدينة، انظر: فولغانغ مولر - فيز: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص 94-95.
- 41- العماد الأصمغاني: الفتح القسي، ص 423، 360؛ أبو شامة: الروضتين، ج 4، ص 160؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 162-163.
- 42- كان أول استخدام للحمام الزاحل على ما يبدو في تاريخنا الإسلامي للأغراض الاستخبارية كان في عهد الخليفة العباسي المعتصم، أثناء محاربته لثورة بابك الحارمي، انظر: شاكور مصطفى: دولة بني العباس، ج 2، ص 252.
- 43- أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ق 2، ص 521.
- 44- القلقشندي: صبح الأعشى، ج 14، ص 390.
- 45- البنداري: سنا البرق الشامي، ج 1، ص 260؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 58-62.
- 46- النوادر السلطانية، ص 156.
- 47- البنداري: سنا البرق الشامي، ص 77.
- 48- لمزيد من التفاصيل عن غزو الأسطول الصقلي للإسكندرية، انظر: البنداري: سنا البرق الشامي، ص 77؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 11-16؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص 55-56؛ البنداري: المصدر السابق، ص 132.
- 49- العماد الأصمغاني: الفتح القسي، 412.
- 50- النوادر السلطانية، ص 162-163؛ وانظر عن نشاطات العوام، أبو شامة: المصدر السابق، ج 4، ص 160.
- 51- ابن الأثير: الكامل، ج 10، ص 119؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج 3، ص 145.
- 52- البنداري: سنا البرق الشامي، ص 164-165.
- 53- يبدو أن أول دائرة رسمية استحدثت في تاريخنا الإسلامي لمراقبة كبار رجالات الدولة كانت في العصر العباسي، عندما أسس ديوان الاستخراج لهذه الغاية، انظر: سلامة محمد المرني: المخابرات في الدولة الإسلامية، ص 157.
- 54- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل، ص 47.

- 55-المصدر السابق نفسه، ص78.
- 56-التذكرة المروية في الحبل الحربية، ص15.
- 57-أبو حامد الغزالي: نصيحة الملوك، ص386.
- 58-ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص13.
- 59-المصدر السابق نفسه، 43-44.
- 60-أبو شامة: الروضتين، ج4، ص105-106؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص347-349؛ والمدابير جمع مفرد لها المدابر، وهو الذي قمر في الميسر مرة بعد مرة فيعاود ليقرر، انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ج4، ص105، حاشية رقم3.
- 61-ابن شداد: النوادر السلطانية، ص232؛ ومن الجدير بالذكر أن السواد الأعظم من الأعراب كانوا عوناً لصلاح الدين، وهذا يتضح بشكل جلي من خلال تركيبة جيشه وحملاته المتكررة على معقل الصليبيين، حيث كان الأعراب يقدمون الأخبار ووسائل النقل والمؤن.
- 62-المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق1، ص71.
- 63-المصدر السابق نفسه والصفحة.
- 64-البنداري: سنا البرق الشامي، ج1، ص126.
- 65-ابن شداد: المصدر السابق، ص189.
- 66-الدائرة لفظة عربية، وهي تحريف لكلمة سريانية بمعنى فقير، واسم هذه المنظمة في اللاتينية (Paupere Commititones Christi)؛ أي فرسان المسيح الفقراء، انظر: فيليب حني: تاريخ العرب مطول، ص734، حاشية رقم2.
- 67-ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص60؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ج1، ص257.
- 68-ابن الأثير: الكامل، ج10، ص198.
- 69-العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص522؛ وعن احتلال عكا انظر: ابن واصل: المصدر السابق، ج2، ص246؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج4، ص269، 266، وكان سقوطها في السابع عشر من جمادى الآخرة سنة 587هـ.
- 70-أبو شامة، الروضتين، ج2، ص203.
- 71-الفتح القسي، ص503.
- 72-عن حياته انظر: ابن واصل: المصدر السابق، ج1، ص251-257.
- 73-البنداري: سنا البرق الشامي، ص43-44؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص53-543؛ أبو شامة:

- المصدر السابق، ج 2، ص 288؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 174-175 (تم إلقاء القبض على الجاسوس بوساطة رجل تركماني).
- 74- أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 288؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 249، وقد كتبوا سنان صاحب الحشيشية "بأن الدعوة واحدة والكلمة جامعة".
- 75- لمزيد من التفاصيل عن هذه المؤامرة، انظر: ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 244-248؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 288؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 12، ص 245؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص 183-184؛ ابن الأثير: الكامل، ج 10، ص 53-55؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ق 1، ص 53-54.
- 76- كان قائد الأسطول الصقلي: تانكرد كونت ليكا، لمزيد من التفاصيل عن هذه الغزوة، انظر: البنداري: سنا الرق الشامي، ص 77؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 11-16؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 55-56؛ ابن الأثير: الكامل، ج 10، ص 63-64؛ المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 55-57.
- 77- علي بن أبي بكر الهروي: التذكرة الهروية في الحيل الحربية، ص 23-25.
- 78- العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 417؛ أبو شامة: الروضتين، ج 4، ص 153؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 330-331.
- 79- ابن شداد: المصدر السابق، ص 140-141؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 370-371؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 315-316؛ وقد أوقف صلاح الدين على الشاب الدمشقي فريسة من خيار قرى دمشق كما ذكر ابن واصل، ج 2، ص 316؛ محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، ص 47.
- 80- عن دور عيسى العوام في نقل الرسائل الاستخبارية والمؤن للمحاصرين في عكا، انظر العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 423؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص 162-163؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج 4، ص 160.
- 81- ابن شداد: المصدر السابق، ص 161.
- 82- أبو شامة: المصدر السابق، ج 3، ص 26-28؛ ابن الأثير: الكامل، ج 10، ص 95.
- 83- التركبولي: فرسان ينحدر أصلهم من أمهات يونانية وآباء أتراك أو عرب. لمزيد من التفاصيل، انظر: العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 62 حاشية رقم 8؛ وانظر ستيفن رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ص 469-470، وهناك من يذهب إلى أن هذا المصطلح يشير إلى الجنود

الصلبيين الذين كانوا يجندون من العناصر المحلية، ومن المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية. انظر:

london, Prawer: The Latin Kingdom of Jerusalem PP. 340-343.

84-العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص62؛ أبو شامة المصدر السابق، ج2، ص50؛ العماد الأصفهاني: البرق الشامي، ج5، ص148.

85-وقد عمر صلاح الدين عن نجاح استخباراته وما خططه لاستدراج الصليبيين إلى حطين بقوله: "جاءنا ما نريد ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرهم فطرية، وجميع الساحل ما دونه مانع، ولا عن فتحه وازرع. لمزيد من التفاصيل عن موقعة حطين، انظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، ص85؛ أبو شامة: كتاب الروضتين، ج3، ص292-305؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص115؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص295-298؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص188-194؛ محمود إبراهيم: حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها، ص29-37.

86-ابن شداد: المصدر السابق، ص287-288، وكان من عادة النصاري إذا خرجوا للمشورة للحرب يتشاورون وهم على ظهور الخيل، انظر المصدر السابق نفسه، ص20؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص389-390؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج4، ص310-311.

87-ابن شداد: المصدر السابق، ص280-283.